حكايات من التاريخ

نور الحياة

وحكاية أخرى

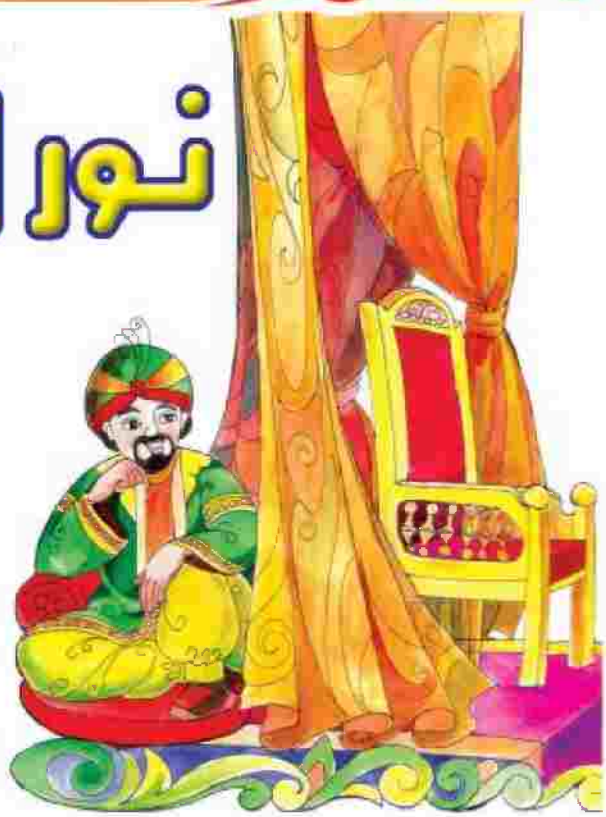

كتبها

محمد رجب

رسوم

محمد نبيل

سقيم

جميع الحقوق محفوظة لشركة سفير

رقم الإيداع : ٢٢٨٧٧ / ٢٠٠٥

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-361-395-X

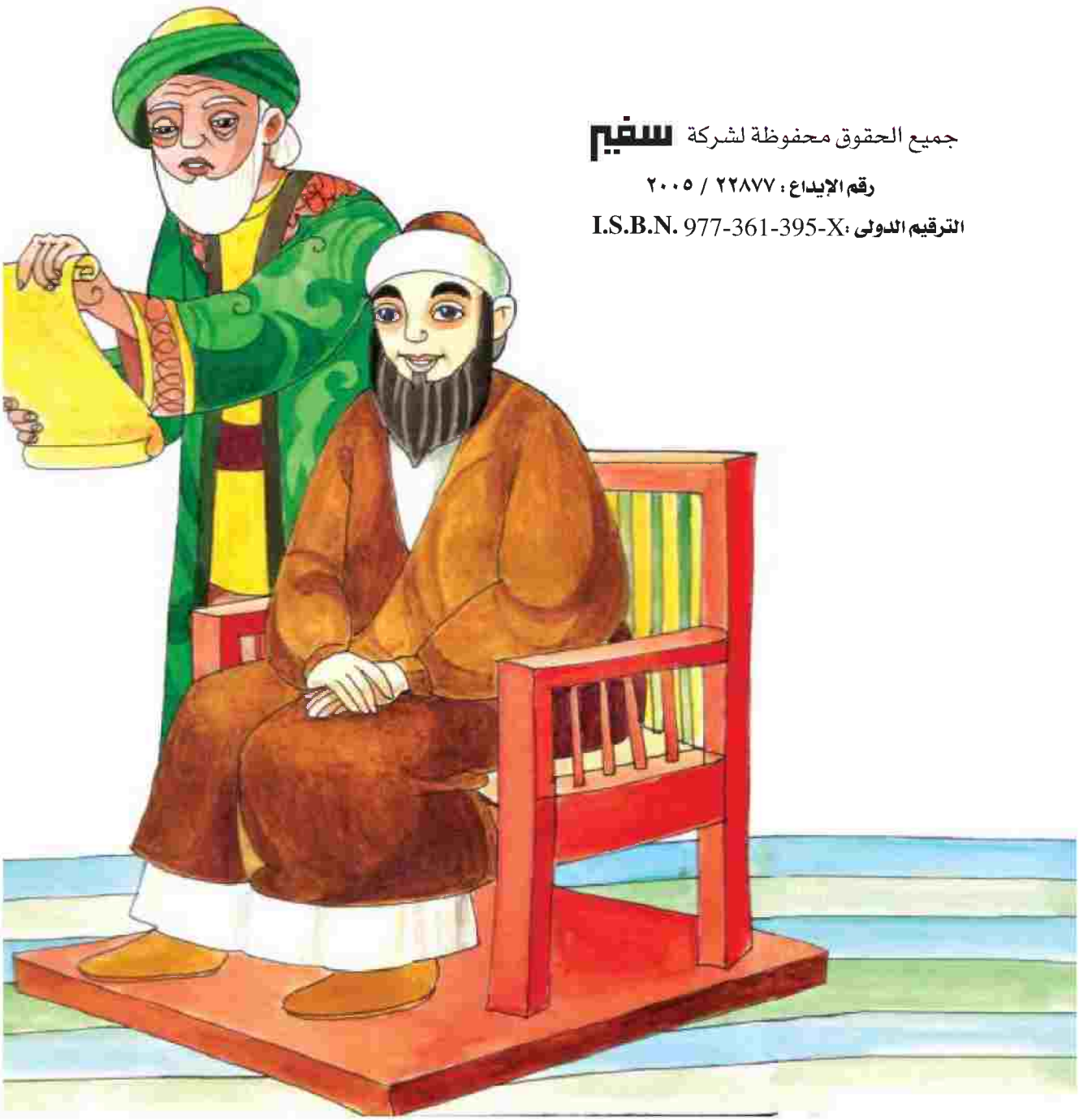

هل تُناظرُنى؟

عَامُ (٩٩) الهِجْرِىّ..

قَصْرُ الخِلافَةِ بِدِمَشْقَ، قَبْلَ الظُّهْرِ..

دَخَلَ حَارِسٌ عَلَى الخَلِيفَةِ «عُمَرَ»:

- مَوْلاَى، رَسُولٌ بِالبَابِ..

أَوْمَأَ إِلَيه «رَجَاءُ» مُسْتَشَارُ الخَلِيفَةِ. مَثُلَ الرَّسُولُ بَيْنَ يَدَي الخَلِيفَةِ. عَلَيه غَبْرَةُ السَّفَرِ..

حَمَّلَنِى مَولاَى «عَبدُ الجَبَّارِ» مَكْتُوبًا ..!

قَالَ «رَجَاءُ»: إِلَىَّ بِهِ...

لَمَّا تَنَاوَلَ الرِّسَالَةَ أَذِنَ لِلرَّسُولِ بِالانْصِرَافِ..

- حَسَنًا، تَتَلَقَّى الرَّدَّ فِى الغَدِ..

قَالَ الخَلِيفَةُ لِمُسْتَشَارِهِ الأَمِينِ:

- مَنْ هُوَ «عَبْدُ الجَبَّارِ»؟

انْثَنَى «رَجَاءُ» إِلَى المَكْتُوبِ. بَسَطَ الرُّقْعَةَ الجِلْدِيَّةَ.

وَأَلْقَى نَظْرَةً سَرِيعَةً عَلَى الكَلِمَاتِ.

هُوَ خَارِجِىٌّ. يَزْعُمُ أَنَّهُ زَعِيمُ العَالَمِ..

هَكَذَا؟.. اقْرأ الرِّسَالَةَ..

تَرَدَّدَ «رَجَاءُ». أَلْجَمَتْهُ نَظْرَةُ الخَلِيفَةِ النَّفَّاذَةُ. قَرَأَ:

- مِنْ عَبْدِ الجَبَّارِ بْنِ مُزَاحِمَ أَمِيرِ الخَوَارِجِ،

إِلَى خَلِيفَةِ المُسْلِمِينَ عُمَرَ بنِ عَبدِ العَزِيزِ،

كَلِمَتَانِ فَاصِلَتَانِ: سَلِّمْ تَسْلَمْ. والسَّلَامُ،.

اعْتَمَدَ «عُمَرُ» رَأْسَهُ بَينَ كَفَّيهِ.

هَؤُلَاءِ الجَبَابِرَةُ مِنَ الخَوَارِجِ يَثُورُونَ. يَقْتُلُونَ النَّاسَ

يُرْهِبُونَ الخَلْقَ بِغَيرِ حَقٍّ. يَنْهَبُونَ المَالَ وَالمَتَاعَ.

خَرَجُوا عَلَى الخُلَفَاءِ. لَوْلَا كُرْهُ النَّاسِ لَهُم لَكَانَتْ لَهُمُ السَّيْطَرَةُ.

- مَاالقَولُ يَارَجَاءُ..؟

بَانَ الغَضَبُ عَلَى مَلَامِحِ الشَّيخِ: سَنُرِى الأَمِيرَ المَزْعُومَ مَنْ نَكُونُ..

رَدَّدَ «عُمَرُ» النَّظَرَ حَوْلَهُ: رَبِّى.. لَمْ أُرِدِ الخِلَافَةَ..! لِمَاذَا لَا يَسْتَقِيمُ الأَمْرُ إِلَّا بِالدَّمِ..؟

نَهَضَ عَنْ مَقْعَدِهِ. سَارَ فِى أَرْجَاءِ قَاعَةِ العَرْشِ مُتَمَهِّلًا: أُفَكِّرُ فِى حَلٍّ آخَرَ..

-لَكِنْ يَاأَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، إِنْ لَمْ نَضْرِبْ بِيَدٍ مِنْ حَدِيدٍ تَطَاوَلُوا و...

قَاطَعَهُ الخَلِيفَةُ بِابْتِسَامَةٍ:

- وَجَبَتْ صَلَاةُ الظُّهْرِ. أَلَمْ نُمهِلِ الرَّسُولَ إِلَى الغَدِ..؟

فِى الصَّبَاحِ التَّالِى..

«عُمَرُ» يَتَأَمَّلُ الرَّسُولَ بِنَظْرَةٍ نَفَّاذَةٍ..

تَوَرَّدَ الخَدَّانِ. تَبَدَّلَ الشُّحُوبُ رَوَاءً. بَدَا الرَّجُلُ نَظِيفًا وَشَابًا: نِمْتَ هَانِئًا وَاسْتَرَحْتَ مِنْ سَفَرِكَ.؟

– نَعَمْ يَامَوْلَاى..

– إِذَنْ آنَ أَنْ تَتَسَلَّمَ الرَّدَّ..

نَاوَلَهُ «رَجَاءُ» لِفَافَةً مَطْوِيَّةً. قَالَ«عُمَرُ»:

– خُذْهَا إِلَى «عَبْدِ الجَبَّارِ». لَقَدْ جَهَّزْنَا لَكَ رَاحِلَةً وَعَلَفًا..

– شُكْرًا مَوْلَاى..

نَاوَلَهُ «رَجَاءُ» كِيسًا. تَابَعَ «عُمَرُ» يَقُولُ: وَهَذَا المَالُ لِتَسْتَعِينَ بِهِ فِى سَفَرِكَ..

انْحَنَى الرَّسُولُ. قَالَ: إِنَنِى ذَاهِبٌ فِى التَّوِّ...

تَبَادَلَ «عُمَرُ» ومُسْتَشَارُهُ نَظْرَةً.. «رَجَاءُ»: «لَاتَعْجَبُهُ حَفَاوَةُ الخَلِيفَةِ بِرَسُولِ الأَعْدَاءِ ». سَحَبَ المُسْتَشَارُ نَظْرَتَهُ بَعِيدًا..

● ● ●

يُقِيمُ الخَوَارِجُ عَلَى حُدُودِ«العِرَاقِ».

يَعِيشُونَ فِى الخِيَامِ، فَهُمْ رُحَّلٌ، فِى السُّهُولِ تَمْرَحُ خُيُولُهُم وَتَرْعَى.

عَلا صَوتُ حَارِسٍ وَسْطَ ظُلْمَةِ اللَّيلِ الحَالِكِ:

– مَبْعُوثُنَا وَصَلَ..

مِنْ خَيْمَةِ القِيَادَةِ خَرَجَ «عَبْدُ الجَبَّارِ». فَارِعُ الطُّولِ فِى سَوَادٍ وَنَحَافَةٍ. أَصْلَتْهُ شَمْسُ النَّهَارِ.

الرَّسُولُ نَاوَلَهُ اللِّفَافَةَ. أَوْمَأَ إِلَيْهِ «عَبْدُ الجَبَّارِ» فَانْصَرَفَ .

دَاخِلَ الخَيمَةِ طَالَعَ الرِّسَالَةَ عَلَى ضَوءِ مِشعَلٍ.

جَلَسَ عَلَى حَشِيَّةٍ.

كَوَّرَ الرِّسالَةَ فِي ضِيقٍ. أَلْقَاهَا بِغَضَبٍ فِي زَاوِيَةٍ مِنَ الخَيمَةِ..

خَلِيفَةُ المُسْلِمِينَ يَطْلُبُ المُسْتَحِيلَ..!

– أَمَّا بَعْدُ، بَلَغَنِي أَنَّكَ خَرَجْتَ غَضَبًا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَسْتَ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنِّي.

هَلُمَّ أُنَاظِرُكَ، فَإِنْ يَكُنِ الحَقُّ مَعَنَا تَدْخُلْ فِيهِ، وَإِنْ يَكُنِ الحَقُّ مَعَكَ نُرَاجِعْ أَنْفُسَنَا وَنَنْظُرْ فِي أَمْرِنَا، وَالسَّلامُ!

• • •

بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيلِ..

جُنْدُ الخَارِجِيِّ يَفْتَرِشُونَ أَرْضَ الخَيمَةِ. تَبَادَلُوا النَّظَرَاتِ، تَوَجَّسُوا الشَّرَّ انْثَالَتِ الأَقْوَالُ:

– الخَلِيفَةُ ضَعِيفٌ..

– بَلْ خَائِفٌ..

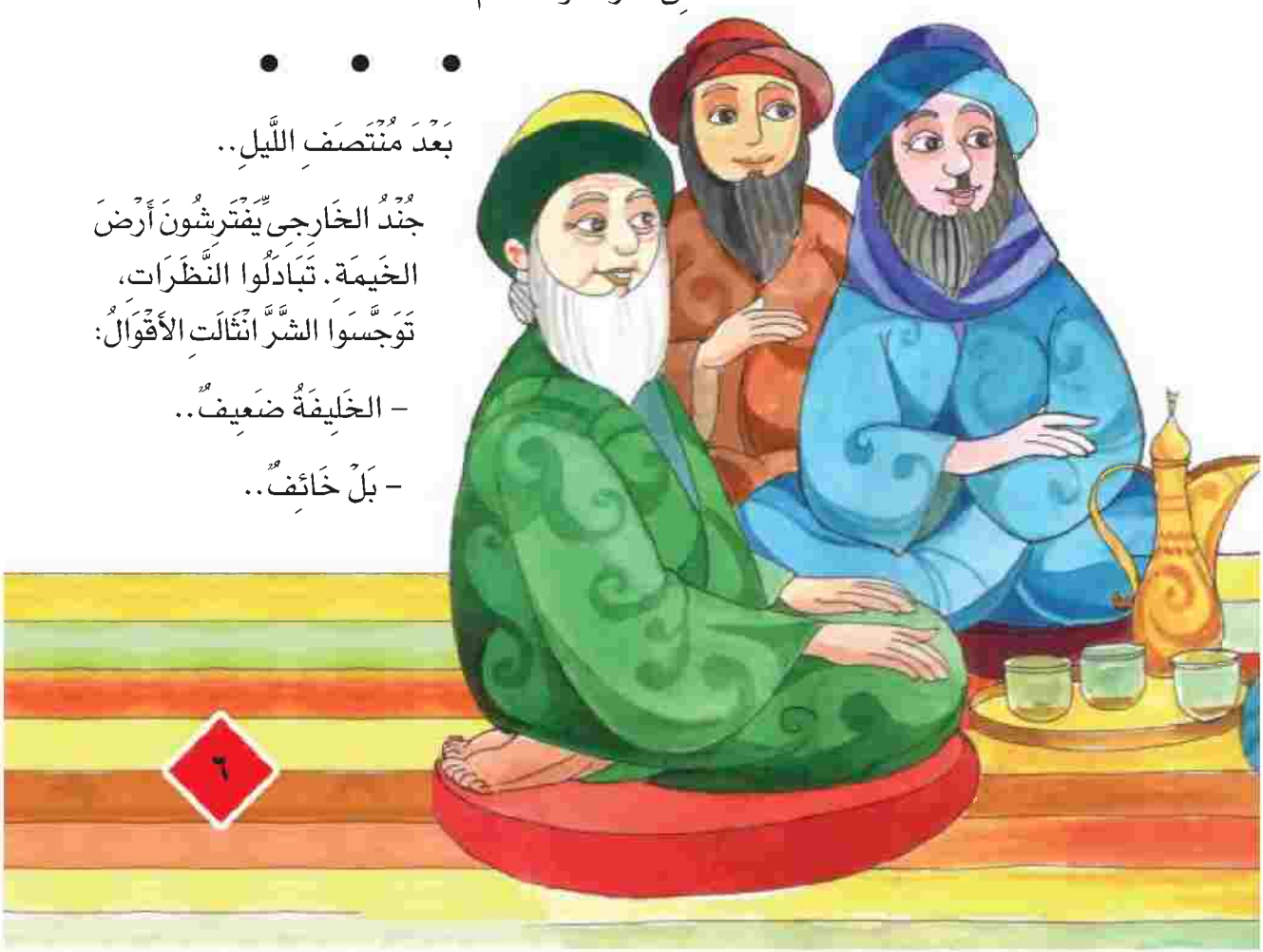

- يَظُنُّ أَنَّهُ غَالِبُنَا بِالحُجَّةِ..

- نَكبِسُ عَلَيهِ فِي«دِمَشْقَ»..

- سَيَعْلَمُ «عُمَرُ» مَنْ نَكُونُ..

نَظَرَ فِي وُجُوهِهِم. اللَّيلُ يَزْحَفُ مُرْتَدًا أَمَامَ طَلائِعِ الفَجْرِ. تَثَاءَبَ: فَلْنُرْجِئِ الرَّدَّ قَلِيلاً..

انْفَضُّوا عَنْهُ إِلَى مَضَاجِعِهِم..

عَادَ يَبْسُطُ الرِّسَالَةَ. قَالَ:

- يَالَكَ مِنْ حَكِيمٍ دَاهِيَةٍ يَاعُمَرُ..!

• • •

بَعْدَ يَومَيْنِ.. عِنْدَ الغُرُوبِ.

فَارِسٌ طَائِرٌ عَلَى جَوَادِهِ. هَاهِيَ أَسْوَارُ «دِمَشْقَ» أَخِيرًا.

لاَحَ قَصْرُ الخِلافَةِ قَرِيبًا..

اسْتَوْقَفَهُ الحَرَسُ..

- إِلَى أَيْنَ..؟

- إلَى أَمِيرِ المُؤمِنِينَ. مَعِى لَهُ رِسَالَةٌ.

فِى مَجْلِسِ عِلْمٍ كَان «عُمَرُ».

اعْتَادَ الخَلِيفَةُ أَنْ يَجْمَعَ العُلَمَاءَ وَيُحَاوِرَهُم. يَتَذَاكَرُ العُلَمَاءُ مَعَهُ العِلْمَ.

كَانَ «عُمَرُ» يَقُولُ: لاَطَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِى مَعْصِيَةِ الخَالِقِ..

اسْتَأْذَنَ الحَارِسُ: رَسُولٌ يَاأَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ..

تَأَمَّلَ «عُمَرُ» الغَرِيبَ. أَفْسَحَ لَهُ مَكَانًا. سَأَلَهُ:

- تَسْمَعُ الحَدِيثَ أَمْ لَكَ مَسْأَلَةٌ عَاجِلَةٌ..؟

- أَسْمَعُ الحَدِيثَ..

بِلِسَانٍ عَذْبٍ تَحَدَّثَ «عُمَرُ».. قَارَعَ العُلَمَاءَ الحُجَجَ. فَغَرَ الغَرِيبُ فَاهُ.

انْصَرَفَ الفُقَهَاءُ وَالعُلَمَاءُ..

- مَا الحِكَايَةَ أَيُّهَا الغَرِيبُ..؟

- جِئْتُ أُنَاظِرُكَ..

ضَحِكَ «عُمَرُ» طَوِيلاً . عَبَسَ«رَجَاءٌ» فِى ضِيقٍ..

- حَسَنًا، مَاذَا تَأْخُذُ عَلَينَا..؟

بَسَطَ «عَبْدُ الجَبَّارِ» يَدَهُ:

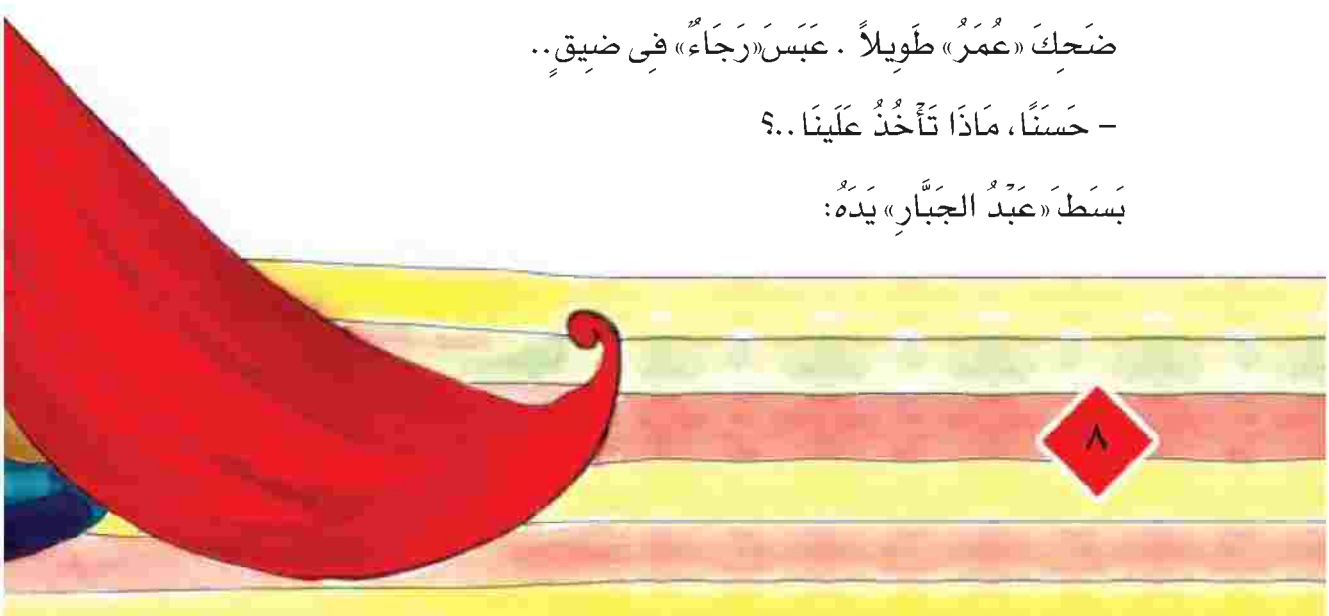

- لَمْ أَجِدْ عِنْدِى حُجَّةً. اقْبَلْ تَوْبَتِى..!

احْتَضَنَهُ الخَلِيفَةُ وَحَمِدَ اللَّهَ تَعَالَى. سَأَلَهُ: مَا الَّذِى غَيَّرَكَ..؟

- وَهَلْ أَنَا أَعْلَمُ مِنَ العُلَمَاءِ وَقَدِ انْتَصَرْتَ عَلَيهِم..؟

هَزَّ «رَجَاءُ» رَأْسَهُ. قَالَ:

- حَقًا. حَقَنَ الخَلِيفَةُ دِمَاءَ المُسْلِمِينَ بِثَاقِبِ فِكْرِهِ..!

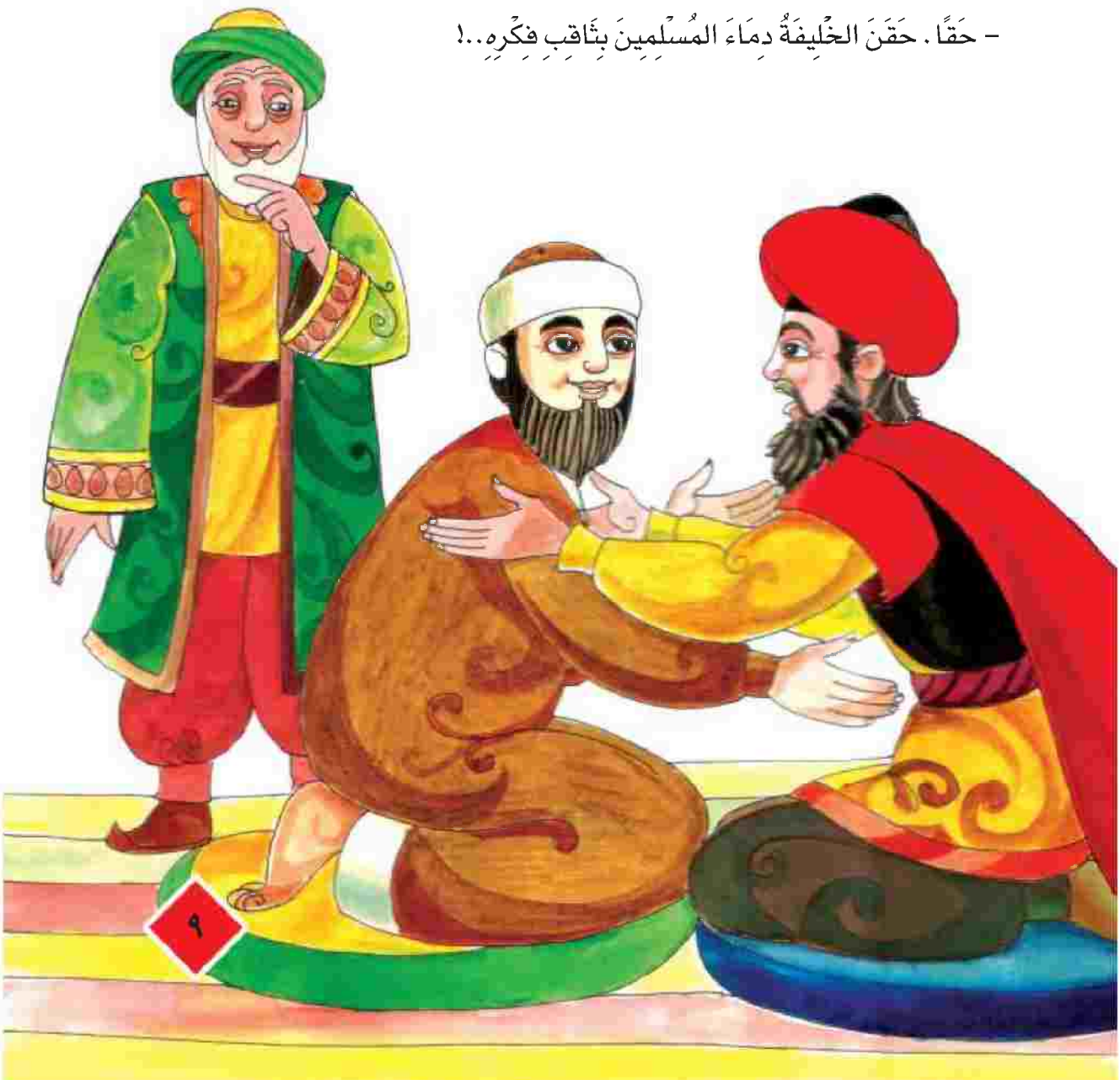

فدائي صغير

«مِصْرُ» المَحْرُوسَةُ - عَامُ (١٧٩٩م)

إبَّان حَمْلَةِ «نابِلْيونَ»

- مَاذَا تَقُولُ..؟ خَطَفَ بُنْدُقِيةً..؟

- نَعَمْ، جِنرالُ..

- وَهَاجَمَ جُنْدِيًا..؟

- حَدَثَ..!

- وأَطْلَقَ النَّارَ..؟

- وَكَادَ يَقْتُلُ جُنْدِيَّينِ..!

انْدَهَشَ الجِنَرَالُ «بِيزِيه»: عَجِيبٌ

أَمْرُ المِصْرِيينَ! لايَكُفُّونَ عَنِ الثَّوْرَة.

لِمَاذَا لاَيَسْتَسْلِمُونَ..؟ هَلْ عَلِمُوا أَنَّ

«بُونَابَرتَ» زَاغَ إِلَى «فَرَنْسَا»..؟

صِغَارُهُم صُقُورٌ. لَيْسُوا

حَمَائِمَ بِالمَرَّةِ.

سَيَضْرَبُ بِيَدٍ مِنْ

حَدِيدٍ..!

صَاحَ «بِيزِيه»:

- إِلَىَّ بِه..!

كَمْ يَحِنُّ «بِيزِيه» إِلَى وَلَدِهِ «رِيمُونَ». مُنْذُ عَامٍ لَمْ يَرَهُ.

مَتَّى تَنْتَهِى الحَمْلَةُ النَّكِبَةُ..؟

• • •

- كَمْ عُمْرَكَ يَافَتَى..؟

- اثْنَا عَشَر عَامًا..

تَأَمَّلَهُ «بِيزِيهُ» فَاحِصًا. عُودٌ «نَحِيلٌ». غُصْنٌ هَزِيلٌ مَعْرُوقُ اليَدِ والذِّرَاعَينِ.. كَيفَ فَعَلَهَا..؟

- مَا اسْمُكَ..؟

- «جَلالُ الدِّينِ الفَقَاعِىُّ»..؟

- مَا قَرْيَتُكَ..؟

- «فَقَاعَةُ»، مَرْكَزُ «بِبا»..

- خَبِّرْنِى، هَلْ سَرَقْتَ البُنْدُقِيَّةَ..؟

- تَرْفُضُ الإِجَابَةَ..؟

- لَنْ يُعْجِبَكَ قَوْلِى..

- أَسْمِعْنِى.

- لَمْ أَسْرِقْ..

- فَبِمَ تُسَمِّى فِعْلَتَكَ الشَّنِيعَةَ..؟

- جِهَادٌ فِى سَبِيلِ اللَّهِ، عَنِ الأَرْضِ وَالأَهْلِ..

الجِنَرَالُ يُعْجَبُ بِالصَّغِيرِ. لَمْ يَتَلَعْثَمِ الوَلَدُ. جَبَّارَةٌ عَقِيدَتُهُ.

الانْتِمَاءُ جَذْوَةٌ مُشْتَعِلَةٌ..!

- مَنْ سَلَّطَكَ عَلَينَا..؟

- لاَ أَحَدَ..

تَعْنِى بِأَنَّكَ وَحْدَكَ انْتَزَعْتَ البُنْدُقِيَّةَ وَ..؟

فَأَكْمَلَ الصَّغِيرُ: وَأَطْلَقْتُ النَّارَ..

• • •

عَاينَ «دِيزِيه» ذِرَاعَ الوَلَدِ المَبْتُورَةَ. لَولاَ هَاجَمَ جُنْدِىٌّ الصَّغِيرَ لَقُتِلَ جُنْدٌ كَثِيرُونَ..!

عَاجَلَهُ أَحَدُهُم بِضَرْبَةِ سَيْفٍ فَطَارَتِ الذِّرَاعُ وَالبُنْدُقِيَّةُ..

مَاذَا يَفْعَلُ الجِنَرَالُ الكَبِيرُ بِالوَلَدِ الثَّائِرِ..؟

- ذِرَاعُكَ مَقْطُوعَةٌ وَلا تَصْرُخ..؟

- هَلْ يَصْرُخُ الرِّجَالُ..؟

أُلْجِمَ لِسَانُ القَائِدِ. تَطَلَّعَ إِلَى الوَلَدِ فِى انْبِهَارٍ. لَوْ أَنَّ فِى «فَرَنْسَا» أَمْثَالَهُ لَكُنَّا أَعْظَمَ أُمَّةٍ..!

حَكَوا لِلجِنَرَالِ كَثِيرًا عَنْ بَسَالَةِ المُسْلِمِينَ. بَعْضُ الصِّبْيَةِ العَبَادِلَةِ رَاحُوا لِلرَّسُولِ. أَرَادُوا الإِذْنَ بِالجِهَادِ فِى «بَدْرٍ».

الرَّسُولُ استَمْهَلَهُمْ حَتَّى يَكْبُرُوا .

• • •

رَفَعَ الجِنَرالُ صَوْتَهُ مُنَادِيًا : أَنْتَ يا سِيمُون..!

انْشَقَّتِ الأَرْضُ عَنْ كَبِيرِ حُرَّاسِهِ : لَبَّيكَ، جِنرَالُ..

يَضِيقُ «سِيمُون» أَحْيَانًا بِالقَائِدِ الكَبِيرِ. لِمَاذَا يُضَيِّعُ وَقْتَهُ مَعَ مُجَرَّدِ طِفْلٍ؟!

أَشَارَ«دِيزِيه» إِلَى الوَلَدِ :

ثَلاَثُونَ جَلْدَةً...!

– أَمْرُكَ، وَمَاذَا بَعْدُ..؟

– جِئْنَا بِهِ.

– أَمْرُ سَيِّدِي القَائِدِ...

• • •

ظَهْرُ الوَلَدِ تَقَرَّحَ. جَلَدُوهُ بِلا رَحْمَةٍ. العَذَابُ يَنْطِقُ فِي مَلامِحِهِ. تَفَرَّسَ فِيهِ الجِنَرالُ:

– هِهْ، مَنْ سَلَّطَكَ..؟

صَوتُ الوَلَدِ وَاهِنٌ. صَوْتُهُ لَمْ يَنْكَسِرْ ذِلَّةً. لَمْ يَئِنَّ الصَّبِيُّ وَلا شَكَا..

– لا..أَحَدَ..

– الإِنْكَارُ لَنْ يُفِيدَكَ..!

– لَقَدِ اعْتَرَفْتُ..

– قَبَضْنَا عَلَى أَبِيكَ..

نَكَسَ الصَّبِىُّ رَأْسَهُ.

– أَبُوكَ مُزَارِعٌ، فَهَلْ تَعَلَّمْتَ أَنْتَ..؟

– فِى مَكْتَبِ القَرْيَةِ حَفِظْتُ القُرْآنَ..

– وَأَبُوكَ..؟

– لا دَخْلَ لَهُ بِفِعْلَتِى..

جَلَدْنَاهُ. مَا اعْتَرَفَ. لَكَ ثَلاثَةُ

أَشِقَّاءَ وَأُخْتَانِ..؟

– نَعَمْ، تَرْتِيبِى قَبْلَ آخِرِ لأَشِقَّاءِ..

– تُحِبُّ أَنْ تَخْرُجَ إِلَيهِمْ..!

– إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَعَلَ..!

– لَكَ مِهْنَةٌ..؟

– أُسَاعِدُ أَبِى فِى الزَّرْعِ..

• • •

تَلَوَّنَ وَجْهُ «دِيزِيه». مَهْمَا يَفْعَلْ

لأَيُرْهِبُ الصَّغِيرَ.

مَهْمَا يَقْسُ فَالوَلَدُ جَبَلٌ..

– لَنْ تَعْتَرِفَ..؟

– اعْتَرَفْتُ..

- مُسْتَحِيلٌ أَنْ تَفْعَلَهَا وَحْدَكَ..!

- لِمَ لاَ..؟ البُنْدُقِيَّةُ كَالفَأْسِ..

- لَكِنَّ البُنْدُقِيَّةَ تَقْتُلُ..

- والفَأْسُ يَقْتُلُ أَحْيَانًا..

- أَنْتَ تُصَعِّبُ الأَمْرَ..

- لاَعَلَيكَ. هَاكَ رَأسِى اقْطَعْهُ..!

- هَا. هَا. هَا.

عَيْنَا «سِيمُون» تَدُورَانِ. مَعْقُولٌ أَنْ يَضْحَكَ «دِيزِيه» !

هَلْ أَصْبَحَ السَّفَّاحُ وَدُودًا كَالحَمَلِ..؟

- مَا رَأْيُكَ، سِيمُون ..؟

- هَلْ تُوَجِّهُ الحَدِيثَ لِى..؟ آه.. الوَلَدُ شُجَاعٌ..

- هَذَا رَأْيُكَ..؟

- أَجَلْ، لَكِنْ فَلْنَضْغَطْ أَكْثَرَ..

- كَيفَ..؟ يُمْكِنُنَا كَسْرُ عُنُقِ الوَلَدِ..

- لاَ يَاسَيِّدِى، نُعَذِّبُ بَعْضَ أَهْلِهِ. نَعْدِمُ البَعْضَ الآخَرَ و....

ضَحِكَ «دِيزِيه». وقَالَ:

بَلْ نُطْلِقُ سَرَاحَ الصَّغِيرِ وَأَبِيهِ..!

• • •

«دِيزيه» فِى حَدِيقَةِ قَصْرِهِ بِبَارِيسَ. جَالِسٌ يُدَوِّنُ مُذَكِّرَاتِهِ..

– مَاذَا تَفْعَلُ يَا أَبِى..؟

نَظَرَ الجِنَرَالُ المُتَقَاعِدُ إِلَى وَلَدِهِ. «رِيمُون» الَّذِى تَعَدَّى العِشْرِينَ:

– أُسَجِّلُ بَعْضَ الذِّكْرَيَاتِ..

– بَعْدَ اثْنَى عَشَرَ عَامًا..؟ مَاذَا كَتَبْتَ تَوًا..؟

جُمْلَةً عَنْ فِدَائِىٍّ صَغِيرٍ مِنْ «مِصْرَ»..

أَسْمِعنِيهَا..

آه.. لَوْ أَنَّ «جَلَالَ الدِّينِ»

عِنْدَنَا لأَحْبَبْنَا وَطَنَنَا

أَكْثَرَ..